الفعل الكلامي في قصيدة ابن الأبار القضاعي.

الأستاذة: حورية رزقي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة– الجزائر

تمهيد

نقف على فضاء واسع من التجليات في إبداعنا الأدبي الأندلسي، حيث تأسرنا اللغة الشعرية بتشظياتها الفنية والإيقاعية والبنائية، فتجعل منها مساحة خاضعة لجدلية المقاربة والمدارسة، لاسيما إذا برزت هذه اللغة بكل تمظهراتها اللفظية محورا واضحا تلتقي عنده الحبكة الشعرية أو محورا خفيا يمكن جمع أجزائه من بواطن الخطاب الشعري المتباعدة... ولا نعني هنا باللغة جسد النص العام ووسيلته التواصلية المتاحة، وإنما نشير إلى مكامن اللغة الأخرى التي يخفيها النص الشعري بين طياته، لذلك ارتأيت أن أبين من خلال هذه الدراسة اهتمام اللسانيات التداولية بالتواصل والاستعمال الفعلي للغة والسعي لإيجاد مبادئ تشتمل على اتجاهات مجاري الفعل الكلامي المتشابك الإنجاز الذي يجب أن يوجد عند إنجاز العبارة كي تصير ناجحة ومفهومة، والحث على تحويل الخطاب إلى أفعال منجزة يمكن أن ندعوها تأويلا تداوليا للعبارة. وقصيدة ابن الأبار– لاشك– أنها مجالا خصبا لتطبيق هذه الدراسة. وسنرى هل الفعل الكلامي في النص كان له صبغة تنفيذية إجرائية كما بين ذلك" أوستين" بأن طبيعة الأفعال الكلامية ليست الإخبار وإنما اقتران معانيها بأداء عمل.

يندرج موضوع هذه الدراسة ذو الطابع التطبيقي في إطار الاهتمام بتحليل النصوص الأدبية القديمة، وقد وقع اختياري على قصيدة تعد من المراثي الشهيرة في أدب الاستصراخ والاستنجاد لابن الأبار القضاعي، التي مطلعها:

أدرك بخيلك خـــيل الله أندلســـا إن السبـــيل إلى منجاتها درســـا

وارتأيت أن أتناولها بالتحليل وفق أحد المناهج النقدية المعاصرة؛ المتمثل في التداولية.

ويكون عملنا ضمن العناصر الآتية:

– الإطار العام للنص.

- الفعل الكلامي في اللسانيات التداولية.
- التحليل التداولي للفعل الكلامي في القصيدة.

أولا: الإطار العام للنص

يمثل شعر الاستصراخ والاستنجاد ظاهرة بارزة في الأدب الأندلسي لأنه يحمل انتفاضة على الطغاة الذين داهموا المدن الإسلامية- خاصة- في بلاد الأندلس، ولقد بلغت هذه الحركة درجة من الصدق انعكست على فنون الشعر.

فانبرى العديد من الشعراء يستنهضون همم الملوك والحكام في الأندلس وفي الشمال الإفريقي لنصرة المدن الإسلامية المعرضة لطواغيت الصليب.

ولنا نموذج في مأساة" بلنسية" التي زحف نحوها" خايمي ملك أراغون" بجيش ضخم حيث شدد عليها الحصار في الخامس من شهر رمضان سنة 635هـ، أفريل 1238م، فعزم أهلها على الثبات والدفاع عنها حتى آخر رمق. وكان الملك" أبو جميل زيان" أكثرهم عزما وإصرارا، فبذل محاولات حثيثة لطلب النجدة من البلاد الإسلامية القريبة، لكنها كانت عاجزة عن أداء واجبها، فقرر إرسال سفارة إلى" أبي زكريا الحفصي" صاحب إفريقية،- تونس حاليا- يطلب منه العون والنجدة، وندب لها ابن الأبار (أبا عبد الله بن أبي بكر القضاعي) الشاعر والأديب والمؤلف، صاحب كتاب" الحُلَّة السِّيَراء"، و" تكملة الصلة"، و" تحفة القادم"، وغيرها...

" آثر ابن الأبار أن يكون حديثه عن بلده وطلب الغوث من صاحب إفريقية شعرا، وأفرغ قصيدته كل ما يملك من شاعرية وفن ليثير نخوة الأمير،... وبين أن موضوع القصيدة ليس كالمراثي السابقة، فأولئك يبكون فحسب، أما هو فيبكي ويستنجد، ومن ثمّ بدأها بدعوة حارة إلى الأمير الحفصي أن يدرك الأندلس بجيوشه، وأن يعينه على النصر في معركته، وأن ينقذ دولة الإسلام وما تعانيه."[1]

أدرك بخيلك خيلَ الله أندلسا ... إنّ السبيلَ إلى مناجاتها درسا
وهبْ لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا"[2]

ثم أخذ يصور كل الأحداث الجسام التي أحاطت بأهل بلنسية، وكيف أحل الشرك دار الإيمان وتحولت مساجدها إلى كنائس وانتهكت حرماتها، وطمس جمالها النضر، وأصبحت أرضا مستباحة من طرف الطغاة المتكالبين عليها.

تقاسم الروم لا نالـت مقاسمهـم إلا عقائلـها المحجـوبـة الأنـسـا
وفي بلنسية منهـا وقرطبـة ما ينسـف النفس أو ما ينزف النفسـا
مدائن حلهـا الإشراك مبتسمـا جذلان وارتحـل الإيمـان مبتئسـا
يـا للمساجد عادت للعدا بيعـا وللنـداء غـدا أثنـاءهـا جرسـا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها مدارسـا للمثانـي أصبحـت درُسـا
كانـت حدائـق للأحداق مونقة فصوح النضر من أدواحهـا وعسـا
فأيـن عيش جنيناه بهـا خضرا وأين عصـر جلينـاه بهـا سلسـا[3]

ثم واصل عرض الأهوال التي تدمي القلوب، ليبعث روح الحمية والأنفة في نفس الأمير الحفصي عساه يصد هجمة الإفرنج عن" بلنسية" وينقذها بجيشه، كما أورد الشاعر مناقب الأمير السالفة، وذكره بأنه صاحب الفضل في إحياء دعوة" المهدي بن تومرت" في إفريقية، ونصرة الحق فيها.

محـا محاسنهـا طاغ أتيـح لـه ما نـام عن هضمـها حيـنا ونعسـا
خلا لـه الجـو فامتدت يداه إلـى إدراك ما لـم تطـأ رجلاه مختلسـا
وأكثر الزعـم بالتثليـث منفـردا ولـو رأى رايـة التوحيد مـا نبسـا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقـى المراس لهـا حبـلا ولا مرسـا
وأحي ما طمست منها العداة كمـا أحييت من دعوة المهدي مـا طمسـا[4]

ثم عدد مآثره وخصه بمدح في أبيات طويلة تجاوز ثلث القصيدة نذكر منها:

هذي وسائلها تدعوك من كثـب وأنت أفضـل مرجو لمن يئسـا
....
ملك تقلدت الأملاك طـاعتـه دينا ودنيا فغشـاها الرضى لبسا
من كل غاد على يمناه مستلمـا وكل صـاد إلى نعمـاه ملتمسا
مؤيـد لـو رمـى نجما لأثبته ولو دعـا أفقا لبى وما احتسبا[5]

وفي نهاية النص يستصرخ الشاعر الأمير الحفصي أن يسرع بجيوشه إلى الأندلس ليطهرها من نجاسة الشرك، ويبعث الأمل من جديد في نفوس أهلها، ويتوقع أن النصر لقريب على يده ليمحو أثر الأعادي.

يـــا أيهـــا الملك المنصور أنت لها عل‍ياء توســـع أعداء الهدى تعســـا
وقـــــد تواترت الأنباء أنـــك مـــن يحيي بقتل ملوك الصفر أندلســـا
طهـــر بلادك منهـــم أنهـــم نجـــس ولا طهارة مـــا لـــم تغسل النجسا
وأوطـــئ الفيلـــق الجرار أرضهـــم حتى يطأطئ رأسا كل من رأســـا
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعا تهمي زكا وخســـا[6]

وكان لهذه القصيدة المبكية أثرها في نفس الأمير الحفصي، فبادر إلى إرسال أسطول لنجدة" بلنسية" ولكن وصل بعد فوات الأوان، فسقطت المدينة في أيدي النصارى سنة (636 ه) بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون!

ثانيا: الفعل الكلامي في اللسانيات التداولية

قبل دراسة أفعال الكلام الإنجازية في النص آثرت أن أستعرض بإيجاز نظرية أفعال الكلام، لقد قامت هذه النظرية على فرضية أساس مفادها أن كنه الكلام لا يكمن في تبادل المعلومات وفقط، بل هو أيضا تحقيق فعلي للحدث، تحقيق تحكمه القواعد وتوجهه الأهداف. فأنْ نتلفظ يعني أنك تفعل، وكما أننا لا نفعل لأجل لا شيء، فإننا كذلك لا نتلفظ لأجل لا شيء، إننا نتلفظ لأجل غايات وأهداف محددة كأن نخبر أو نسأل أو نعد. وكما أن فعل التلفظ كباقي الأفعال ليس فعلا مجانا، فإنه كذلك ليس حرا، إن له قانونا ينظمه كما لباقي الأفعال قوانينها المنظمة. وبهذا يفترض الموقف التداولي أن التلفظ هو الفعل، أو هو نوع من الفعل، وبذلك سوف لن يُستخدم اللسان ليحيل على نفسه. بقدر ما يستعمل ليعكس فعل التلفظ. وهكذا فإن معنى كلامي سوف لن يتوقف إلاَّ على قيامي بفعل التلفظ وعلى ما يستتبع هذا السلوك.

وانبثقت هذه النظرية من أهم مبدإ في الفلسفة اللغوية الحديثة، وهو" أن الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين أيضا في الوقت نفسه"[7].

ونشأت هذه النظرية على يد فيلسوف اللغة الانجليزي" جون أوستين"(John Austin) الذي يعد أبا للتداولية، وقد تأثر بالفيلسوف" فنجشتاين" الذي يرى أن المعنى هو الاستعمال.

ومن خلال المحاضرات التي ألقاها في جامعة" أكسفورد" ما بين عامي 1952 و1954 لاحظ أن هناك عبارات إذا نطقت بها لا تنشئ قولا فحسب، بل تؤدي فعلا في الوقت نفسه، مثل أن تقول لمن بشرك بالنجاح: خذ البشارة؛ فقد قلت وفعلت في الوقت نفسه.

ولكن الأفعال ليست كلها من هذا النوع، لذلك فقد قسم أوستين الأفعال قسمين:

1- أفعال إخبارية: تصف الواقع الخارجي، وهي تتسم بالصدق أو الكذب.

2- أفعال أدائية: تؤدى بواسطتها أفعالا معينة، ولا يمكن وسمها بالصدق أو الكذب، بل توصف بأنها موفقة أو غير موفقة، ومنها: الأمر والطلب والاعتذار، والوصية، والوعد، والنصح... إلخ.

ثم عدل عن هذا التطبيق لأن هناك بعض الأفعال الإخبارية تتضمن أداء، مثل قولك لمن يمشي في الطريق: السيارة مسرعة، التي تتضمن تحذيرا، لذلك ذهب إلى القول إن الفعل الكلامي يتركب في الوقت نفسه من ثلاثة جوانب لا يمكن فصلها إلا بغرض الدرس، وهي:

1- الفعل اللفظي: وهو المتألف من أصوات لغوية ضمن تركيب نحوي صحيح ينتج عنه المعنى الأصلي.

2- الفعل الإنجازي: وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي مع معناه الأصلي.

3- الفعل التأثيري: وهو الأثر الذي يحدث عند السامع من خلال الفعل الإنجازي.

وبعد هذا قدم" أوستين" تصنيفا مبدئيا للأفعال على أساس قوتها الإنجازية، وإن كان غير راض عن هذا التصنيف تمام الرضا، وهو كالآتي:

1- أفعال الأحكام: وتقوم على إطلاق أحكام ذات قيمة أو حدث مثل: حكم ووصف وحل وقيم...

2- أفعال القرارات: وتتمثل في اتخاذ قرار ما أو استعمال السلطة لصالح أو ضد أفعال معينة مثل: أمر، وعين، وطلب، ونهى، وأعلن...

3- أفعال التعهد: وهي التزام المتكلم بفعل بشيء ما مثل: التزم، ووعد، وقسم، وضمن...

4- أفعال السلوك: كالاعتذار، والشكر، والترحيب...

5- أفعال الإيضاح: وتتمثل في إيضاح وجهة نظر، أو بيان رأي، مثل: اعترض، وصوب، وأكد، وأنكر...[8]

لكن نظرية الأفعال الكلامية لم تكتمل إلا على يد تلميذه" جون سيرل"(John searl)، وهو فيلسوف أمريكي، حيث تناول نظرية أستاذه وطورها وسدد ما نقص في جوانبها ثم أعاد النظر في التقسيم الثلاثي للفعل الكلامي، كما غير في تصنيف الأفعال الإنجازية وجعلها خمسة أنماط رئيسة، وهي:

1- أفعال تمثيلية: وغرضها الإنجازي وصف واقعة معينة من خلال قصة، وهي تحتمل الصدق والكذب، ومن أمثلتها: أفعال التقرير والاستنتاج.

2- أفعال توجيهية: وهي الأفعال التي تمثل محاولات المتكلم لتوجيه المستمع للقيام بعمل ما، ومن أمثلتها: أفعال الطلب والسؤال.

3- أفعال التزاميه: وهي الأفعال التي تلزم المتكلم بفعل شئ في المستقبل، مثل: أفعال العرض والوعد والوعيد.

4- أفعال تعبيرية: وهي التي تعبر عن حالة نفسية المتكلم، ومن أمثلتها: الشكر والاعتذار والترحيب والتهنئة.

5- أفعال إعلانية: وهي الأفعال التي تحدث تغيرات نحوية في نمط الأحداث العرفية التي غالبا ما تعتمد على طقوس اجتماعية كإعلان زواج أو أفعال طرد وإقالة من العمل.

وهذه الأفعال تكون ناجحة إذا طابق محتواها القضوي العالم الخارجي[9].

لقد أصبحت الوحدة الأساسية للتواصل تتمثل- على غير ما كان يعتقد- في الفعل اللغوي. ذلك أن الفعل- l'acte- يمثل الوحدة الأولية لكل تفكير تصوري. وحيث اللغة تستعمل لتمثيل الفكر، فإنه لا وجود لملفوظ إلا وهو تجسيد لإنجاز الفعل. أضف إلى أن الفعل اللغوي يمثل كباقي الأفعال شكلا من أشكال السلوك الاجتماعي، إنه يمثل الممارسة اللغوية والتفاعل التواصلي. وعليه إن دراسة تهتم بالعبارات اللغوية هي في الحقيقة ولنفس الأسباب دراسة للأفعال اللغوية، وإن شئت قلت دراسة للوحدات الشاملة لعناصر التواصل اللغوي. ولعل بهذا الاعتبار اكتسب الفعل خاصيته الجوهرية التي جعلت منه وحدة التواصل الأساسية.

تلك كانت لمحة وجيزة حول نظرية أفعال الكلام الإنجازية إلا أن ما جاء به " أوستين" لم يكن جديدا بالنسبة للباحث العربي حيث بينت الدراسات أن علماء النحو العربي والبلاغة العربية أدركوا منذ قرون شيئا عن نظرية الحدث الكلامي المنسوبة إلى أوستين...[10]

ثالثا: التحليل التداولي للفعل الكلامي في القصيدة

لقد رأى" فنجنشتاين" أن وظيفة اللغة ليست مجرد تقرير الوقائع أو وصف العالم والتعبير عن الفكر، وإنما لها وظائف عديدة، وسانده" أوستين" في هذا الطرح، وبين أن هناك نوعا آخر من العبارات لا تصف العالم ولا تحكم عليه بصدق أو كذب، فإذا نطقت بها أنجزت فعلا، وتلعب اللغة دورا أساسا في نظرية الفعل التواصلي باعتبارها الوسيط الأساس للتواصل بين الذوات،" فاللغة ليست مجرد نسق من الرموز له تركيبه النحوي ومعجمه وصوتياته، أو له خصائصه الدلالية فقط، بل ينظر للغة من منظور خصائصها التداولية"[11].

وقد أدرك" أوستين" أن الفعل الكلامي هو الأهم في اللسانيات التداولية، فوجه إليه اهتمامه وجعله لب هذه النظرية، نظرية الفعل الإنجازي.

والفعل الإنجازي مرتبط بمقصد المتكلم الذي له دور مركزي في نظرية الفعل الكلامي، لذلك نجد الأفعال الواردة في مرثية الأندلس متنوعة الصيغ؛ الماضي والمضارع والأمر، وهذه الأقسام دأب عليها علماء النحو، قال" سيبويه":" وأما الفعل فأمثلته أخذت من لفظ أحداث الأسماء بنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع"[12].

ثم راح يفصل ذلك:" فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث، وحمد وأما بناء لم ما لم يقع فإنه قولك آمرا، اذهب، وافعل، واضرب، وما هو كائن لم ينقطع وعبر عنه بقوله مخبرا: يذهب ويضرب ويقتل"[13].

وهذه الأقسام الثلاثة التي قسمها" سيبويه" سار علماء النحو عليها إلى يومنا هذا.

أما في المنظور التداولي– كما ذكرت آنفا– تدرس الأفعال على أساس قوتها الإنجازية، لأن التقسيم الذي نادى به فلاسفة اللغة مبني على أن الأفعال اللغوية لها ثلاثة أنواع؛

– الفعل القولي– L'acte Locutoire–

– الفعل الإنجازي– L'acte Illocutoire–

– الفعل التأثيري– L'acte perlocutoire–

وكل تلفظ إلا ويتضمن جانبين على الأقل من هذا التقسيم.

وتوصل" أوستين" في محاضرته الأخيرة(الثانية عشرة) إلى تصنيف للأفعال الكلامية أسماه" قوتها الإنجازية" فجعلها خمسة أصناف– كما رأينا سابقا–، إلى أن تلميذه" جون

سيرل" عدل في هذا التصنيف وحول اهتمامه من الفعل المتضمن في القول إلى القوة المتضمنة في القول، وأن الفعل يقوم على ثلاثة أسس منهجية هي: الغرض الإنجازي، واتجاه المطابقة، وشرط الإخلاص، وجعلها خمسة أصناف أيضا هي:

أ- التقريريات، ب- الوعديات، ج- الأمريات، د- الإيقاعيات، هـ- البوحيات.

أما الأفعال الواردة في القصيدة حسب تقسيم النحاة فهي كالآتي:

- أفعال الماضي، مثل: درسا- التمست- ذاقت- تقاسم- ارتحل- صوّح ...
- أفعال المضارع، مثل: يعود- تثني- ينسف- ينزف- يستوحش- يستجلس ...
- أفعال الأمر، مثل: أدرك- هب- صل- احي- انصر- املأ- اضرب ...

أما حسب فلاسفة اللغة فنجد:

1- الأمريات- Directifs- وتعرف أيضا بالتوجيهات، والغرض هو توجيه المتكلم رسالة إلى المخاطَب لفعل شئ ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، (world- to- words) وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة للعمل، ويدخل في هذا الصنف؛ النصح، والأمر، والاستفهام، والاستعطاف ...

لذلك نجد الشاعر في هذا النص يستهله بهذا النوع من التصنيفات- الأمريات- والغرض الإنجازي هو الاستصراخ والاستنجاد، فهو يحاول توجيه نظر الأمير الحفصي لتقديم يد العون لأهل" بلنسية" المحاصرة من طرف الروم، وفي هذه الظروف الصعبة هو المؤهل لذلك، بتوجيه القول إليه ← يريده أن يقوم بعمل

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أندلُسَاً ... إنَّ السَّبِيلَ إلَى مَنْجاتِها دَرَسَا
وَهَبْ لهَا مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ ... فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
وَحاشِ مِمَّا تُعانيهِ حُشَاشَتُها ... فَطَالَما ذَاقَتِ البَلوَى صَبَاحَ مَسَا
....
صِلْ حَبْلَها أَيُّها المَوْلَى الرَّحيمُ فَما ... أَبقَى المِراسُ لَها حَبْلاً وَلا مَرَسَا
وَأَحْيِ مَا طَمَستْ مِنْهُ العُداةُ كَمَا ... أَحيَيْتَ مِن دَعوَةِ المَهْدِيِّ ما طُمِسا
....
طَهِّرْ بِلادَكَ مِنْهُم إِنَّهُم نَجَسٌ ... وَلا طَهَارَةَ ما لَم تَغْسِلِ النَّجَسا
وَأَوْطِئ الفَيْلَقَ الجَرَّارَ أرضَهُمُ ... حتَّى يُطَأطِئَ رَأْساً كُلُّ مَنْ رَأْسا
وانْصُر عَبِيداً بأَقْصَى شَرْقِها شَرِقَتْ ... عُيُونُهم أَدْمُعاً تهْمِي زَكَاً وخَسا[14]

وتكون الاستجابة للأمريات بالامتثال أو الامتناع. والذي يقتضي به فعل شيء ما، ويعد من المدعمات للفعل الإنجازي،– النداء– وهذا ما نجده في قوله:

يَا للجَزيرَةِ أَضْحَى أَهلُهـا جَـزَراً للحَادِثَاتِ وأَمْسَـى جَدُّهَـا تَعَسا
يَا لِلْمَساجِـدِ عَادَتْ للعِـدَى بِيَعـاً وللِّنِّـداءِ غَدَا أَثْنَـاءَها جَـرَسـا

ومنه أيضا التضرع كقوله:

أَيُّهـا المَلِكُ المَنْصُورُ أَنْـتَ لَهَـا عَلَيَاءُ تُوسِـعُ أَعْـداءَ الهُدَى تَعَسا

ونلاحظ الحالة النفسية المصاحبة لهذه الأمريات فهي تنم عن الرغبة الملحة في الدفاع عن " بلنسية" والإسراع في تنفيذ الأمر فالقضية لا تحتمل التأجيل.

2 ــ التقريريات– Assertifs– أو الإخباريات، والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية يعبر بها عن هذه الواقعة، وأفعال هذا الصنف تحتمل الصدق والكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم،(words– to– world)، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة، والتعبير الصادق عنها، وإذا تحققت الأمانة في النقل فقد تحقق شرط الإخلاص وإذا تحقق شرط الإخلاص أنجزت الأفعال إنجازا ناجحـا أو تاما وإلا أصبحت أخبارا لا معنى لها[15].

وضمن هذا الصنف في القصيدة نجد الشاعر يخبر أمير تونس على ما حدث في مدينته(بلنسية)، ويذكر الأهوال والمصائب التي لحقت أهلها، وغرضه من ذلك وصف واقع الحرب وأن الغزاة أرادوا الاستيلاء عليها كما استولوا على مدن قبلها، فهو يدافع عن قضية مصيرية وهي قضية الوطن المهدد بالسقوط بين لحظة وأخرى:

وَفِي بَلَنْسِيةٍ مِنْهـا وَقُرْطُـبَـةٍ مـا يَنْسِفُ النَّفـسَ أَو ما يَنزِفُ النَّفَسا
مَدائِـنٌ حَلَّهـا الإشْرَاكُ مُبْتَسِمـاً جَذْلانَ وارتَحَـلَ الإيمـانُ مُبْتَئِسـا
وَصَيَّرَتْها العَوادِي العَابِثـاتُ بِها يَستَوحِشُ الطَّرْفُ مِنْها ضِعْفَ ما أَنِسا
مِنْ دَسَاكِـرَ كانَتْ دُونَهَا حَرَسـاً وَمِنْ كَنَائِسَ كَانَتْ قَبْلَهـا كُنُسـا

ثم ينتقل إلى إبراز جمالها المسلوب الذي كان مبعث الأمل ومسرة للنظر ومروح القلوب، كيف أصبح أثرا بعد عين:

كانَتْ حدَائِـقَ للأَحْـدَاقِ مؤنِـقَـةً فَصَوَّحَ النَّضْرُ مِن أَدْواحِها وَعَسـا
وَحَالَ ما حَوَّلَهَا مِنْ منْظَـرٍ عَجَـبٍ يَستَجْلِسُ الرَّكْبُ أَوْ يَستَرْكِبُ الجُلُسا
سُرْعَانَ ما عاثَ جَيْشُ الكُفْرِ واحَرَبا عَيْثُ الدَّبَى في مَغَانِيهَا التِي كَبَسـا

كما يصف الشاعر حالة الشرك الذي حط بظلاله على المدينة فحولها إلى فضاء موحش يخيم عليه البؤس والشقاء.

مَحَا مَحَاسِنَهـــا طـــاغٍ أُتِيحَ لَها مَا نامَ عَن هَضْمِهَا حِينـــاً وَلا نَعَســـا
وَرَجَّ أَرْجَاءَهَا لمَّـــا أحـــاطَ بِها فَغادَر الشُـــمَّ مِـــنْ أَعْلامِهـــا خُنُســـا
خلالَهُ الجوُّ فَامْتَـــدَّتْ يَـــداهُ إِلَى إِدْراك ما لَـــمْ تَطَأْ رِجْلاهُ مُخْتَلِســـــا
وأَكْثَرَ الزَّعْمَ بالتَّثْلِيثِ مُنْـــفَـــرِداً وَلَـــوْ رَأَى راية التَّوحِيدِ مَـــا نَبَســـا

فالزمن الغالب في هذه الأفعال هو الماضي الذي يفيد التقرير متضمنا حقائق صادقة، وجاءت المطابقة فيه من الكلمات إلى العالم، والغرض مما سبق هو التأثير في المخاطَب ليدرك ما حصل في الجزيرة وكأنه يراها رأي العين.

3 ــ البوحيات– Expressifs– وتعرف أيضا بالتعبيرات، وهي الأفعال التي تعبر عن حالة نفسية المتكلم، وهي التعبير عن المشاعر إزاء الواقع، لتقديـــم الشكر أو الاعتـــذار أو الترحيب أو التهنئة، وهذه الأفعال إرادية، والوسيط الحامل لها هو اللغة، وشرط الإخلاص يتحقق حين يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع(16).

فالشاعر في توجهه إلى الأمير لطلب النجدة، كان صادق النية، وهذا شرط أساس في التأثير، وكذلك أقواله الموجهة للمخاطب كانت مركزة على إبراز مفاخره التي يعتز بها، ومن هنا لا يترك له مجالا للنظر أو التردد في إنفاذ الأمر.

فقال مادحا له:

مَلْـــكٌ تَقَلَّـــدتِ الأَمْـــلاكُ طَاعَتَـــه دِينـــاً ودُنْيا فَغَشَّاهـــا الرِّضَى لِبَســـا
مِنْ كُلِّ غَادٍ عَلَى يُمنَـــاه مُستَلِمـــاً وكُـــلّ صَـــادٍ إِلَـــى نُعْمَاهُ مُلْتَمســـا
مُؤَيَّـــدٌ لَـــو رَمَـــى نَجْمـــاً لأَثْبَتَـــهُ وَلَـــوْ دَعَـــا أُفُقـــاً لَبَّى وَما احتَبَسا
تاللَّهِ إِنَّ الذِي تُرجَـــى السعودُ لَـــهُ مَا جَالَ فِي خلَدٍ يَومـــاً وَلا هَجَسا
إِمارَةٌ يَحْمِـــلُ المِقْـــدَارُ رايَتَهـــا ودَوْلَـــةٌ عِزُّها يَسْتَصْحِـــبُ القَعَسا
يُبْدِي النَّهَارُ بِها مِنْ ضَوْئِـــهِ شَنَباً ويُطْلِعُ الليلُ مِـــنْ ظَلْمَائِـــهِ لَعَســـا
ماضِي العَزِيمَةِ والأَيَّامُ قَـــدْ نَكَلَتْ طَلْقُ المُحَيَّا ووَجْهُ الدَّهْرِ قَدْ عَبَســـا
كَـــأَنَّـــهُ البَـــدْرُ والعَلْيَاءُ هالَتُـــهُ تَحُفُّ مِن حَولِهِ شُهْبُ القَنَا حَرَســـا
تَدْبِيرُهُ وَسِعَ الدُّنيا ومَـــا وَسِعَتْ وعُرْفُ مَعْرُوفِهِ وَاسَى الوَرَى وَأَســـا

قَامَتْ عَلَى العَدلِ وَالإحسانِ دَعْوَتُهُ وأَنْشَرَتْ مِنْ وُجُودِ الجُودِ ما رُمِسا
مُبَـارَكٌ هَدْيُـــهُ بـــادٍ سَكِينَتُـــهُ مَا قامَ إلا إلَـــى حُسْنَـــى وَلا جَلَسا
قَـد نَوَّرَ اللَّهُ بِالتَّقوَى بَصِيرَتَـــهُ فَمَا يُبالي طُروقَ الخَطْـبِ مُلتَبِسـا
بَرَى العُصاةَ وَرَاشَ الطائِعِينَ فَقُلْ في اللَّيْثِ مُفْتَرِساً والغَيـثِ مُرْتَجِسا
ولَم يُغَادِر علَى سَهْـلٍ وَلا جَبَـلٍ حَيًّا لقاحاً إذا وَفَّيْتَـهُ بَخَـســـا
....

فجاءت هذه الأفعال تحمل قوة إنجازية متمثلة في حركيتها النابضة بالأعمال:

- تقلدت الأملاك طاعته...
- مؤيد لو رمى نجما...
- ترجى السعود له...
- قامت على العدل والإحسان دعوته...
- مبارك هديه باد سكينته...
- قد نور الله بالتقوى بصيرته...

فالفعل القضوي الوارد في كل هذه الأفعال محمل بطاقة محفزة تسرع تنفيذ الطلب. وهذا ما حصل فعلا حسب الروايات التاريخية، أن الأمير الحفصي أرسل الجيوش والمؤن إلى ثغور" بلنسية" ولكن شاءت الأقدار أن لا تصل بسبب قوة الأعداء.

وإذا عدنا إلى الصنف الأول(الأمريات)، لنقف على بلاغة الأفعال الإنجازية فيها فنجد على سبيل المثال في البت الأول الفعل الطلبي: ← أدرك بخيلك

وبمنظور تداولي علينا أن نحدد منزلة كل من المتكلم والمخاطَب لمعرفة غرض الفعل الطلبي إن كان أمرا، أو التماسا، أو دعاء...

– فالأمر صادر من شاعر وهو من عامة الناس، وهو أدنى رتبة من المأمور.

والأمر عند النحاة يفيد المستقبل أبدا، فالدعوة هنا لحمل المأمور على العمل في سبيل الدفاع عن المدن الإسلامية ونصرتها.

والمؤشرات المصاحبة لهذا الفعل: ← خيل الله ← فيه دلالة رابطة الدين.

← إن السبيل ← فيه دلالة التوكيد.

ويعد التوكيد بـــ:" إنّ" من الروابط في البنية الحجاجية؛ تسبقها مقدمة وهي جملة الفعل الإنجازي(أدرك بخيلك)، وتليها نتيجة(السبيل إلى منجاتها درسا).

الحجة(أدرك بخيلك) ←——— الرابط(إنّ) ←——— النتيجة(السبيل إلى منجاتها درسا).

والتوكيد من وجهة نظر النحاة" هو تثبيت الشيء في النفس وتقوية أمره والغرض منه: إزالة ما علق في نفس المخاطب من شكوك وإماطة ما خالجه من شبهات"[17].

أما في اللسانيات التداولية فالتوكيد(Affirmation) من الأساليب التداولية في الخطاب اليومي للتواصل بين المتحاورين.

وفي البيت الثاني الفعل ←——— هب لها من عزيز النصر ←——— استدعاء الفعل بالقول كما عبر عنه" أوستين"(Acte illocutionnaire)، وهو أمر صريح القصد، فبذل القوة لنصرة" بلنسية" جاء مقترنا بما يملك الأمير من عز النصر(فلم يزل هناك عز النصر ملتمسا).

وَحــاش مِمَّــا تُعانِيــهِ حُشَاشَتَهَــا فَطَالَما ذَاقَتِ البَلوَى صبَاحَ مَسَــا

وهذا دعم للفعل السابق ليبين ما لحق المدينة من أحداث أليمة متوالية، والأبي لا يرضى بذلك، فالخطاب ينفذ إلى العواطف حتى يحدث الإقناع ويشحذ الهمم، ويقوي العزائم، فيجعل المتلقي يستجيب دون تردد.

أما في(التقريريات)، فتتحقق بلاغة أفعالها الإنجازية في تلك المؤشرات المصاحبة لها مثل: الاستغاثة، كما هو وارد في البيتين الرابع والثاني عشر:

يَا للجَزيرَةِ أَضْحَى أَهلُهــا جَزَراً لِلحَادِثَــاتِ وأَمْسَــى جَدُّهَــا تَعَــسَــا

يَا لِلْمَساجِدِ عَادَتْ للعِــدَى بِيَعــاً وللِّنداءِ غَــدَا أَثْناءَهــــــا جَــرَسَــا

والمؤشر للاستغاثة هي أداة النداء" يا" وتستعمل لنداء المتوسط والبعيد لأنها تنتهي بصوت مدّ، فالبعيد يقتضي مدّ الصوت ودفعه.

وكما نعلم أن" يا" الاستغاثة هي للنداء أيضا، أي نداء شخص يعين على دفع الشدة.

فالمستغــاث هو ←——— أمير تونس.

والمستغاث له هو ←——— الجزيرة التي أصبح أهلها جزرا.

" " " ←——— والمساجد التي تحولت إلى بيع تقرع فوقها الأجراس.

والغرض من ذلك التأثير في المخاطَب بذكر المقدسات الإسلامية التي ينتمي إليها الأمير فتكون حافزا لتلبية النداء. ومما زاد البلية شدة هو تهديم وتخريب مدارسها القرآنية:

لَهْفِي عَلَيها إلَى استِرجَاعِ فائِتِهـا مَدارِسـاً لِلْمَثانِي أصبَحَـتْ دُرُسـا

كذلك استعمال أسلوب النفي كمؤشر في أفعال الكلام، وله دلالة بلاغية، حيث يرى علماء الأصول أن النفي في نظرية الخبر هو" شطر الكلام كله"[18]. لأنه قسيم الإثبات في الخبر، وقد عرف فخر الدين الرازي(606 ه) الخبر بأنه:" القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو بالإثبات"[19].

ففي البيت الثاني والعشرين نجد أسلوب النفي في قوله:

خلالَهُ الجـوُّ فَامْتَـدَّتْ يَداهُ إلَى إدْراك ما لَمْ تَطَـأْ رِجْـلاهُ مُخْتَلِسـا

فالنفي في الفعل ⟵ لم تطأ رجلاه...

وأن المنفي هو ما ولي أداة النفي ⟵ (الوطء).

وهذا دلالة على أن حصانة المدينة كانت قوية فلم يستطع العدو أن يطأها حتى خفية، أما اليوم فاستباح فيها كل شيء.

وإذا نظرنا إلى الصنف الثالث(البوحيات)، فبلاغة الأفعال الإنجازية تكمن في أسلوب المدح الذي لجأ إليه الشاعر ليعدد مآثر الأمير ويمدحه بما كان يوصف به قرناؤه في ذلك الزمان من عزيمة وعدل وإحسان وشجاعة ليصل إلى تحقيق غرضه.

فنجد الصور البيانية وإن كانت باهته فهي تحمل طاقة إنجازية فعالة، وليتحقق الفعل الإنجازي دعّمه التشبه الذي يتضمن صيغة التأكيد، ففي البيت السابع والعشرين نجد التشبيه في قوله:

وَقُمتَ فيها بِأَمْرِ اللَّهِ مُنتَصِـراً كَالصَّارِمِ اهتَزَّ أَو كالعارِضِ انبَجَسـا

فشبه الممدوح بالسيف خارج غمده استعدادا للحرب والقتال، أو كالغيم المقبل يحمل مطرا وغيثا.

كذلك التشبيه الوارد في البيت الثاني والأربعين:

كَأَنَّهُ البَـدْرُ والعَلْيَـاءُ هالَتُـهُ تَحُفُّ مِن حَولِهِ شُهْبُ القَنَـا حَرَسـا

شبه الأمير بالبدر في عليائه تحيط به هالة ضياء وتحرسه الجيوش بأسلحتها اللامعة كناية عن مضائها.

والتشبيه هنا وسيلة أخرى من وسائل الإقناع في العملية التواصلية لبلوغ المرام.

فليس التشبيه هو الذي سيحمله على العمل ولكن الدلالة المنطوية وراء هذا التلفظ وهو الاعتراف بقوة الأمير وما يملك من عدة وعتاد وهي مسخرة لخدمة دولة الإسلام. كما نجح الشاعر في استخدام الألفاظ القوية التي تعبر عن معاني القوة والعزة.

ويمكن أن نعرض في الختام بعض الملاحظات حول فعل الكلام:

- إن الفعل اللغوي فعل ينتج عن تحقيق الحدث- L'action-.
- إنه فعل قصدي- Intentionnel-.
- إنه فعل خاضع للمواضعة والتعاقد- Conventionnel-.
- إنه من طبيعة سياقية مقامية- Cotextuelle et contextuelle-[20].

وهكذا، فإذا كان الفعل الكلامي يتمثل، كما لاحظنا، في تحقيق تعابير لغوية في حدود الدلالات المرجعية، ودون مراعاة للسياقات الاستعمالية، فإن الفعل الإنجازي يتمثل في تحقيق تعابير لغوية تنطوي- فضلا عما يخوله مستوى الفعل الكلامي من دلالة- على قوى إنجازية - forces illocutoires- قد يمثلها الإخبار أو الأمر أو النداء أو التوكيد أو غير هذا، هذه القوى الإنجازية هي التي تمثل القصد التداولي من تحقيق الفعل اللغوي. وبهذا يكون الفعل الإنجازي هو الفعل الذي من خلاله تبرز معالم اعتبارات الاستعمال.

الهوامش:

1- ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، سنة 1985، ص 395.

2- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، سنة 1987 ، ص 266.

3- الديوان، ص 396 و397.

4- المصدر نفسه، ص 397.

5- " " ص 397 و398.

6- " " ص 399.

7- فان ديك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق: محمد سعيد البحيري، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، 2001، ص 18.

8- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، الطبعة الأولى، سنة 2002، ص 40.
9- جون أستين وجون سيرل، أفعال الكلام، ترجمة منصور العجالي، العرب أون لاين، 2003، ص 3.
10- شاهر لحسن، علم الدلالة السيمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2001، ص 182.
11- عطيات أبو السعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، شركة الجلال للطباعة، الاسكندرية، الطبعة الأولى، سنة 2002، ص 108.
12- سيبويه(أبو بشر عمرو بن قنمبر)، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى،(د ت)، الجزء الأول، ص 02.
13- المرجع نفسه، ص 02.
14- ديوان ابن الأبار، ص 398.
15- ينظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 80.
16- المرجع نفسه، ص 48.
17- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، منشورات المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 1964، ص 234.
18- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى،(د ت)، ص 377.
19- الرازي فخر الدين محمد بن نضر، نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1985، ص 129.
20- جون أستين وجون سيرل، أفعال الكلام، ترجمة منصور العجالي، العرب أون لاين، 2003، ص 03.